حافة على الضوء

وائل صلاح الدين

وائل صلاح الدين

على حافة الضوء

تصميم الغلاف :
الثورة السورية | فريق الملتيميديا

"إهداء

إلى الذين أبصروا النور قبل غيرهم

وإلى شهداء المسجد العمري ...

إلى أشيائهم اليتيمة ،، وأمكنتهم الفارغة

من خلال السقف الذي يحدد مكان عزلتنا من الأعلى ويفصلنا عن الكون الخارجي، كان ضوء الشمس التي لم تشرق بعد قد بدأ بدخول المكان ..

يتلون أثناء تسربه بخجل من البلور الفسيفسائي الموجود في أعلى القبة، ويحاول جاهداً أن يخفف من رمادية المشهد..

طَلَع الضوء إذن !

◆ ◆ ◆

آخر مرةٍ دمعت عيني بها كانت اللحظة التي أدركت فيها أننا أصبحنا في منأى عن هجومهم المسعور ، بعيدين عن الكلاب الهائجة التي ملأت نصف شوارع المدينة طوال الليل والساعات الأولى من صباح اليوم التالي.

كنا قد وصلنا أنا وصديقي الى دوار البرامكة وصار بإمكاننا أن نستقل إحدى السرافيس ، فهمت حينها أننا أصبحنا آمنين منهم دون أن أصدق ذلك تماماً ..

استدار رامي إلي، فرأى حجم الهموم التي التصقت بوجهي وأثقلت صوتي، فصرخ بي بتفاؤل مضاد :

–انتصرنا ... لك والله ليلة بتجنن... والله ذكرى ما رح ننساها بحياتنا ... بكرة بعد خمسين سنة بدي ذكرك فيها

فأجبته بنفس الانكسار والتعب الذي سيطر علي :

– أكيد رح نتذكرها ..

سنذكرها ونحكيها مراتٍ عديدة ..

قد تستحق قصة حصارٍ ليلي كُتبت بنفَس مقطوع محترق أن تُحكى للمدينة الوديعة الغافية، التي ستستيقظ في الصباح على وهج الضوء الملائكي المتسلل إلى بيوتها، لكن ذات القصة ستبهت خجلاً أمام مدن الموت ، مدن الوجع والفجيعة ..
المدن التي تنام وتصحو كل يوم ألف مرة في جحيم الشيطان .

إخوتي في حماه وحمص ودير الزور واللاذقية :
عاري تحت أقدام شهدائكم ، اعذروني ، وارموا هذه الحكاية التي لا تستحق وقتكم ، فهي ليست لكم ..

لا أصدق أن رامي الذي يختلف عني تقريباً بكل شيء هو الذي شاركني الخمس ساعاتٍ الخاصة بهذه التجربة.
اختلاف فهمنا للمواقف وتناقض ردود أفعالنا اتجاه ما تعرضنا له، سبَّب مناقشاتٍ حادة شبه دائمة بيننا، استمرت حتى في أخطر وأحرج اللحظات التي لا تتسع لأكثر من بضع كلمات عابرة أو لأكثر من إطلاق العنان لقدمينا والهرب!

برغم النقاشات الحامية التي كانت تتحول أحيانا إلى شجار تتعالى أصواتنا فيه، لم نترك بعضنا ، بقي كل منا متشبث بوجود الآخر من اللحظة الأولى حتى اللحظة الأخيرة ..

آخر مشادة حدثت بيننا عندما خرج اندفاعه عن حدود المعقول وبدأ بشتمهم في الشارع العام ، أراد العودة لساحة كفرسوسة ليشارك الناس اعتصامهم .
أرادنا رامي أن نعود، نحن الذين لم نصدق أن غادرناها أحياء أحرار .

هذه التجربة القصيرة، بما تحمل من مشاهدات وتناقضات حتى في أبسط تفاصيلها ، ستكشف لي لاحقاً عن المسافة العملاقة التي يمكن لتصرفات الناس أن تتباين فيها بأوقات الخطر والمجهول.

مـ قبل العاصفـة ـــا

ككل المندسين في سوريا، تفاءلنا بحجم المظاهرات الاستثنائي الذي من المرجح أن تحمله ليلة السابع والعشرين من رمضان ، وبدأنا بالتحضيرات النفسية لها قبل أيام .

كان المسجد المختار على العديد من مجموعات وصفحات الفيس بوك هو مسجد الرفاعي في قلب دمشق .

المسجد الذي له في قلبي مكانة شديدة الخصوصية ، يذكرني دوماً ب25-3-2011 وبأولى هتافات الحرية هنا في الشام ..

أمرّ كل يوم بالحافلة من أمامه ، فتلفح وجهي رائحة طهر وحنين.

جلسنا في الساحة المكشوفة من الجامع الذي كان قد امتلأ بشكل كامل قبل وصولنا ، كان هنالك بعض الإشاعات التي تتردد عن وجود نية للاعتصام ، تمنيت ضمنياً أن تكون صحيحة ، لأن الخروج بالمظاهرة إلى خارج سور المسجد محض انتحار ، والعدد الحاشد من الناس بوسعه أن يفعل العجائب إذا تحول فعلاً إلى اعتصام .

في الركعة الأخيرة بدأ الدعاء ، والذي على الرغم من بروده ولا تميزه ، كانت الناس ترد وراءه :

(**يا الله ..**) وأصواتهم تكاد تصل السماء ، وأرض الجامع تهتز بصدى الصوت بعد كل عبارة ، كانوا يتعمدون رفع أصواتهم لله .. كانوا يأملون منه أن يتدخل بمعجزةٍ ما في هذه الليلة، فالظلم وصل لأعلى حد له في الشهر الأكثر قداسة ..

انهالت دموعنا دفعةً واحدة في اللحظة التي ذُكر فيها المعتقلون بالدعاء..

تحطمت دروعنا النفسية، واقتحمَنا الحزن والأمل لأول مرة بهذه الغزارة .

الغضب الذي كنا نبثه بأصواتنا المرتفعة ، خُيل إلي أنه سيجعل الكتل الحيوانية المتربصة بالمسجد من الخارج تهجم على الناس أثناء صلاتهم، حتى قبل بدء المظاهرة المنتظرة .

أول شيء آلمني في هذه الليلة هو خروج عدد كبير من المصلين بعيد انتهاء الصلاة وتوزيع طعام السحور، كأنما ليعلنوا بخروجهم أن

ليس لديهم أي نية للمشاركة بالمظاهرة .
العدد الذي بقي تقريباً في المسجد هو نصف العدد الإجمالي للمصلين .

على الساعة 2:40 انطلقت أولى التكبيرات معلنةً الخطر ..

رد بالتكبير كل من بقي بالمسجد تقريباً واشتعلت المظاهرة في الممر الخارجي المسقوف الذي ينتهي بالباب الحديدي وأيضاً في الصحن المكشوف على السماء والملاصق للممر.

وأخذت الهتافات تتصاعد بسرعة ، ووصلت بعيد دقائق إلى:

(الشعب... يريد .... إعدام الرئيس)

لأول مرة في قلب دمشق ، يقول الناس أنهم يرغبون بإعدام رئيسهم المجرم ، هكذا بصراحة ، وبتلقائيةٍ وبساطة !
قبل بضعة أشهر فقط كان الأمر توغل في الخيال .

خرج من المسجد في هذه الدقائق عدد كبير آخر من الناس قبل أن تزداد الأمور صعوبةً. فما يحدث عادة أنه بعد مرور وقت معين من انطلاق المظاهرة ، تبدأ مرحلة غير معلنة من التهديد ، ويصبح اعتقال الأشخاص الخارجين من المسجد أمراً شبه مؤكد.

10 دقائق تقريباً والمظاهرة تزداد حدةً وقوة ..
مررنا بهذا الزمن الحدي ، ودخلنا بعده مرحلة الخوف..

بعد قليل سيصبح كل من في الداخل مسؤولاً عن قراره بالبقاء ، القرار الذي ينطوي على مصير غوغائي مجهول.

تكتل المتظاهرون عند الأبواب الجانبية الخاصة بالممر الخارجي المسقوف ،أما الميدان الرئيسي للمظاهرة فكان الممر نفسه .. و في نهاية الممر ، تشكل – كالعادة –خط التماس المباشر مع الشبيحة و كلاب الأمن.
المتظاهرون في الصفوف الأمامية يمتلكون عادةً شجاعة استثنائية .

كانوا يتعرضون للقنابل الصوتية و الأحجار والزجاج القادم من الخارج ويستمرون برفع أصواتهم على نحوٍ متزايد...
ولاحقاً علمنا أنهم يتعرضون للرصاص أيضاً !

انتشرت الموجة الرسمية الأولى من الهلع عندما قال بعضهم أنهم شاهدوا قناصاً يقف على سطح البناء العالي على يسار المسجد ، الأمر الذي دفعهم إلى إخلاء المنطقة المكشوفة فوراً والابتعاد عن حواف الممر التي تقع على مرمى نظر القناص .
رامي الذي يكاد صوت هتافه يعلو فوق صوت المظاهرة ، وجدت صعوبةً بالغة بشدّهِ من المنطقة المفتوحة . ذلك أنه لم يكن يسمعني أبدا ولم يكن يعي شيئاً مما يحدث حوله .
عكسي.... كنت مهتماً بأن أحافظ على هدوئي لأعرف الطريقة التي ستتطور وفقها الأمور ..

بعد قليل أصبح الممر المسقوف أكثر خطورة ، كان الوضع يزداد تعقيداً بشكلٍ سريع لا يتيح لنا بالضرورة فهم ما يحدث.

الهجوم على الصفوف الأمامية يولد في العادة موجاتٍ صغيرة من الكر والفر تصل حتى الصفوف الأخيرة من المتظاهرين ..

هذه المرة –ربما بسبب همجية الهجوم –ازداد اتساع التموجات، ومع مرور الزمن هذه التموجات تخلق فجوات في كتلة المظاهرة كلها، لتتحول أحياناً إلى حالات هروب نحو الداخل ..

إلى جانب الخوف المتصاعد من البقاء خارجاً ،شعرت بفضول كبير لأرى ما يحدث داخلاً ، دخلنا بصعوبة ، كان ثمة عدد لابأس به من الناس، ربما يجاوز الـ 450 .
حالة الفزع الكبير لم تكن بعد قد بدأت ، لكن التوتر واللاانتظام سيطر على مجمل الحركة ، لم نرَ تكتلات واضحة في الداخل ، كل واحد يسير في اتجاه ، والأصوات تتعالى وتتضارب لحد لا يمكن معه لإنسان أن يسيطر على اتزان أعصابه في جو كهذا..

بعض المبادرين في الداخل كانوا يطلقون هتافات في محاولةٍ للتخفيف من حالة التشرذم وتوحيد الأصوات، يقولون:

(إيد وحدة .. إيد وحدة ..)..(عالجنة رايحين شهداء بالملايين)

(ليش خايفين، الله معنا)..(ليش خايفيـــــن .. الله معنا)

لم يكن ثمة سبب للخوف بحسب هذه العبارة .. لكن الجميع تقريباً – لا ادري لماذا – كانوا خائفين !

وهذا ما شكل فهمَه هاجساً بالنسبة لي طوال الأشهر الماضية ، وفي هذه الليلة بشكل خاص ..

كان كل همي أن أخدر حواسي عن خوفي المتصاعد الذي يعيث بي فساداً ، وأن أوقظها على ما يحدث مع الناس من مظاهر خوفهم وتصرفاتهم في هذه الظروف.

منذ بداية الحركة الاحتجاجية في سوريا ، أثارت الفوضى الجماعية فضولي لفهم الآليات التي تتحكم بحركة الناس فيها، كان لدي

اعتقاد بأن ثمة سلوكيات حرجة، تلعب دوراً سلبياً في المظاهرات و الإعتصامات والتجمعات، تزيد من تردي الأوضاع في مثل هذه المواقف ، حاولت أكثر من مرة منذ الشهر الثالث أن أحددها بدقة ، لكن دون جدوى.

إلى جانب ذلك، كنت اليوم مشغولاً بإقناع نفسي أنهم لن يقتحموا..

اقتحام المسجد سيشكل خطأً أحمر يصعب عليهم تجاوزه ، خاصةً وأنه لم يحدث هذا الأمر من قبل في دمشق ، ربما كما اعتقد إياد شربجي مرةً في مظاهرة المثقفين أنهم لن يكونوا أغبياء لدرجة اعتقاله وأصدقائه لأنهم شخصيات اعتبارية ... لكنهم فعلوها ..
وسيفعلونها اليوم أيضاً ، ويرتكبون حماقةً أخرى .

وسط الصخب سمعنا صوت الشيخ أسامة عبر الإذاعة يقول أن **"الباب الشرقي للجامع آمن لمن يود الخروج"** ... قبل أن يغلق للأبد هو الآخر !
الباب الشرقي هو الباب الرئيسي الكبير الذي يطل على الساحة مباشرةً .
أحدثَ طرح هذا الخيار مزيداً من البلبلة بين الناس ، قليل منهم خرجوا ومعظمنا استنكر الخروج ، بالنسبة لنا أنا وصديقي لم نكن نود الخروج الآن ، فليس هذا ما جئنا لأجله في هذه الليلة بالذات..

كنا نود الاعتصام ... اعتصام كبير داخل المسجد إلى وقت غير محدد ودون أن نفكر بالنهاية كثيراً.

رامي رفع صوته محذراً من الخروج :

-لا تطلعو لا حدا يطلع .. بدنا نضل كلنا ... بدنا نضل ليطلعوا كل المعتقلين .

كان يرى أنه مع كل خارجٍ جديد سيضعف موقفنا أكثر وأكثر .. وشاهدت العديدين يشاركون رامي رأيه و يرددون كلاماً مشابهاً ، أنا كنت أرى أن ليس من حقي أن أملي على أحدٍ قراراته بالخروج أو البقاء أياً كان المبرر .. وكان ذلك بداية صدامي مع رامي.

وبالنسبة للبعض الأمر مخاطرة غير مأمونة ، فما الدليل على أنهم لن يعتقلوا الخارجين من الباب الشرقي.؟؟

خلق الخيار الجديد حيرة كبيرة في العقول ، إذ كان على من يريد الخروج أن يفاضل ضمنياً بين البقاء و مواجهة المصير المستقبلي المجهول ، وبين المخاطرة بالخروج الآن قبل أن يتصعد العنف، ومواجهة احتمال الاعتقال ما أن يصبح في الخارج

AM 3:05

تناقصت الأعداد في الممر الخارجي، والمتظاهرون صار معظمهم في الداخل الآمن من الرصاص، لم يبقى في الخارج سوى بضع عشرات فقط من الشجعان الغاضبين، هؤلاء – على عكس الذين دخلوا مبتعدين عن الخطر – يحوِّل الخطرُ عادةً سلوكَهم إلى اندفاع و عنف معاكس ، فيبادرون بالتحدي لرد الهجوم بالهجوم ، وأمثال هؤلاء هم من دفع الأذى عن الكثيرين، وأخَّر هجوم الشبيحة على المسجد ...

لقد قاموا بتحويل الممر الخارجي خلال الدقائق اللاحقة الى ساحة مواجهة.

كان العديد لازالوا يأكلون طعام السحور الموزع عندما بدأت المظاهرة ، فوقفوا بسرعة ليتكتلوا وتركوا خلفهم وجبات الطعام وزجاجات العصير على الأرض ، شكلت هذه الزجاجات النصف فارغة المادة الأساسية للرد على القنابل والرصاص، استخدمها المتظاهرون بغزارة وكان معظمها يتم إعادة قذفه على المتظاهرين بعد أن تتكسر .

الهتافات لم تتوقف مع دخول الكتلة الكبيرة وتبعثرها مع الموجودين ، لكنها أصبحت متقطعة ومتعددة، بعضها من الداخل وبعضها من الخارج ..

الانتقال إلى المستوى التالي من جدية الوضع، حدث عندما بدأنا بسماع سلسلة متواصلة من أصوات إطلاق النار ، وأخذت على أثرها تتدفق الإصابات إلى داخل المسجد !

وبدأ معها فصل الهرج والمرج ..

مع الجرحى المتنقلين الذين ينثرون دمائهم في كل مكان يمرون فيه ، خيم الرعب على كل الأرجاء ، بما فيها الزوايا البعيدة من داخل الجامع ، وتخافتت المظاهرة حتى الصمت، أصبحت الهتافات المتقطعة التي تسمع بين فترة وأخرى من هنا وهناك ترفاً لا مكان له مع حجم التوتر الذي احتل المكان ..
الناس، والأثاث، والإضاءة ، ودرجة الحرارة، ودقائق الساعة... كل شيءٍ يغرق في فضاء لامرئي من الخوف والتوتر .

لا يمكن لأحدٍ أن يستمع لأحد ، وفي مثل هذه الظروف تصبح الآراء شديدة التباين حتى على أتفه التفاصيل .

اقتربت من النافذة ورفعت طرف الستارة لأعرف عدد الذين بقوا في الممر الخارجي .
فذهلت من عبثية المنظر .. أصبح الممر مكاناً غريباً، تحول لشيءٍ أخر في أقل من نصف ساعة، ليس له علاقة بالمكان الذي كنا نصلي به قبل قليل !

تكسرت معظم أضوائه وأصبح نصف مظلم، الزجاج المكسر غطى أرض الممر، كل الخزائن والشاشات غادرت أمكنتها وتحطمت .
وبعض السجاد تمزقت أطرافه..
على البلاط كان هنالك طبقة سميكة من سائل لزج... غامق ... عرفت أنه تكوَّن من بقايا العصير المسكوب والمياه و الدماء البشرية، هذا السائل ذُهب وجيء عليه مراتٍ عدة حتى أخذ لونه وقوامه الأخير !
وكان بعض المتظاهرين المقاومين لا يزالون في الخارج بحالةٍ من الكر والفر، بالرغم من كل أصوات إطلاق النار التي لم تتوقف .
قال لي أحدهم عندما سألته عن الصوت، أنه رصاص خلبي مطاطي ثم وقف آخر ووجه كلامه بصوتٍ عالٍ نحو الكتلة الفوضوية المتحومة حول النافذة :

(لا تخافوا .. قنابل غازية قنابل صوتية .. يعني شو رح يساوو ... لا حدا يخاف .. ما صاير عليكون شي)

العديد من أمثال هذا الرجل يتمتعون بشخصية قيادية ، ويمتلكون ما يكفي من الجرأة لرفع أصواتهم فوق الجميع في محاولاتٍ بائسة

لتوحيد الصف و توجيه فكرةٍ أو تحذيرٍ ما ، لكن المشكلة أن شجاعة البعض الخاصة ليس بالضرورة أن تعبر عن وعي خاص .. فكثيراً ما كانوا يعطون تعليمات عامة نابعة من رؤيتهم المحدودة للأمور ، والتي لا يرضى عنها الآخرون ، فترد الجماعة عليهم بالرفض والانتقاد والاستنكار ...
ومزيد من الأخذ والعطاء بلا طائل ..

برغم كل الانشغال والتوتر ، كان صديقي يشعر بإثارةٍ كبيرة ، ينادي ويهتف دون أن يُنزل هاتفه عن أذنه، يكلم هذا وذاك ، ويبلغهم بما يحدث، وكأن أحداً سيشعر بما نعاني ..
زاد ذلك من توتري وغضبي أكثر من مرة ، فانشغاله كان سيسبب انفصالنا عن بعض بسبب التزاحم والتصادم، وهو ما كنت حريصاً جداً على ألا يحصل ، فأن تكون وحيداً لا تعرف أحداً في وسط هذه المعمعة سيخلق مشكلة ليست بسيطة ..

في الحقيقة .. القوى على طرفي المواجهة لم تكن يوماً متساوية ، فنحن جئنا لنتظاهر بسلمية، ولم نأتي لنقاتل أو نرد الرصاص ونعالج الجرحى، في الوقت الذي كانت فيه أعداد الكائنات المستشرسة المعدة مسبقاً للضرب المميت في الخارج يفوق ربما أعدادنا بمرات .

مع مرور أكثر من خمسة أشهر على الثورة ، تعلم الكثير من الرجال أن يكونوا أكثر من رجل في وقت واحد .
كان علينا أن نكون شجعان أقوياء ،أذكياء و سريعي البديهة ، واعيين ولاطائفيين، و مسعفين طبيين ومتظاهرين سلميين في نفس الوقت !
لكن الكثيرين –وأنا واحد منهم – لم يحققوا هذه المعادلة بعد.

مر بعد ذلك أربع أو خمس دقائق قبل أن تبدأ الستون دقيقة التي لن أنساها في حياتي .

AM 3:10

اقتحموا الباب الرئيسي..

واجتاحوا الساحة المكشوفة والممر الخارجي

هرب المتظاهرون بسرعةٍ نحو الداخل وأغلقوا كل الأبواب الداخلية وراءهم ، حاملين معهم موجة جديدة من الخوف ، كان دخولهم يعني أن الكلاب المسعورة سيطرت على كل المساحات الخارجية من المسجد وبات الخطر محدقاً أكثر من أي وقت سابق .

تسارُع الأحداث لم يدع لي مجالاً لأسأل أحداً من الذين دخلوا إذا تمكن الشبيحة من الإمساك بأحد أم لا.

الهياج ازداد بشكلٍ مطرد والفوضى بدأت تعم المساحات المغلقة.

ولا شيء يحجبنا عنهم إلا الأبواب الداخلية الخشبية والزجاجية ، لم يكن لدى الناس أي خيارٍ سوى سد البوابات وإحكامها.

تحول المسجد بدقائق إلى حصن وظيفته حماية الناس (إن استطاع حمايتهم) .

أن يتمكنوا من الدخول سيعني بالضرورة مجزرة في العاصمة دمشق، في قلب المسجد ، مسجد الرفاعي .
لأن الكثيرين استعدوا للدفاع عن أنفسهم وعن المسجد دفاعَ حياةٍ أو موت ..

سيجد بعض من لم يكن معنا صعوبةً في تصديق أن الأمر كان مشابهاً جداً لأحد أفلام "ريدلي سكوت" التاريخية !

المبادرون الشجعان أنفسهم تولوا مهمة سد الأبواب ، حولوها إلى متاريس ، وضعوا أمامها خزائن المصاحف والأحذية المحيطة بهم.
على الرغم من أني كنت أشاهد ما يحدث بعيني إلا أن الأمور بدت للحظات غير مفهومة ..
عقلي وجد صعوبةً بتصديق الأمر ، فأقنعت نفسي أن سد الأبواب بهذه الطريقة مجرد إجراء احترازي وأن الكلاب تحاول إخافتنا فحسب وأنهم لن يدخلوا...

كنت انظر من شخصٍ لآخر بحثاً عن أجوبة ، عن طمأنينة ..
أجول في أرجاء المكان، لعلّي أعثر على الإجراء الجذري الذي يعالج الخطر المتربص بحواسي ويقتلعه بشكل كامل .
محاولات لا منطقية .. سخيفة .. بائسة

بعد ثوانٍ أعدت نظري للأبواب ، فصُعقت من الشكل الجديد :
الخزائن، كل الخزائن، والكراسي المعدنية والبلاستيكية الموجودة في المسجد كله كانت قد وُضعت خلف الباب مشكلة كتلة عملاقة تصل حتى السقف وتفوق حجم الباب بثلاث مرات !!!

أينفع هذا يا ترى ؟؟
كنا نترقب

وحدها الأصوات كان بوسعها أن تشق الترقب المسيطر على الناس الجالسين والواقفين .

الأصوات ..

أصواتٌ مروعة أخذ دويها يتردد بين دقيقة وأخرى في المدى الداخلي الكبير..

كانت أصوات محاولاتهم لكسر الأبواب والدخول !

مع كل الحجم الهائل للأغراض الموضوعة لمنع الأبواب من الانفتاح ، كان هجومهم من الخارج يهزها ويهز الجدار كله ، ويهز معها كتلة الأجسام البشرية التي التصقت بالأرض خلف الأبواب ، مصدراً أصوات عالية تشق صمتنا وضجيجنا وتوقف الزمن في قلب الجامع.

مع كل صدمة ينتشر صداها ، يضخون كميات إضافية من الأدرينالين في دمائنا.

شعرت بحرارة الأدرينالين ينفذ إلى كل خليةٍ منفردةٍ من دماغي و يحلّ مفاصل عظامي ..

نفضت رأسي أكثر من مرة لأتخلص من سيطرة هذه الحالة ، دون فائدة .

ضغطت بقوة على ذراع رامي لأفرِّغ فيه بعض الخوف.

ربما لم يكن رامي يفكر مثلي بمصيرنا الذي سنواجه بعد قليل، فقد أبدى شجاعةً واندفاعاً كبيراً ، أراد الذهاب للمساعدة في سد الأبواب ، لكننا لم نستطع الوصول.

ماذا سنفعل الآن ؟

وما الذي سيحصل ؟ وإلى متى ستصمد الأبواب والرجال الذين يسدونها ؟؟

لم أُعِد بعدها النظر للأبواب، ليس بمقدوري تخيل اللحظة التي يدخلون بها ويهجمون ، يضربون ويفجرون الدماء من رؤوسنا ، ويجروننا كالنعاج إلى الباصات مع عدد كبير من الجثث .

استمر هدير الأصوات...

خلال عجزهم عن الاقتحام، قاموا بتهشيم النوافذ التي تطل على الممر الخارجي، فافترش السجاد الأخضر بالزجاج الحاد وتحولت هذه النوافذ إلى نقاط مواجهةٍ عن بعد، يقذفون منها علب العصير، والأحجار والأحذية والأغراض المختلفة إلى الداخل على الناس المحاصرين .

بعد قليل طرحت على رامي فكرة الصعود للطابق الأعلى الذي

يسمونه (السدة)، لأني رأيت أنه سيكون أكثر أماناً..

ولم أدري حتى الآن ما هي القوى "الميتافيزيقية" التي غيرت مسارنا وقتها و جعلتنا نمتنع عن الصعود والاكتفاء بالدخول لمنطقة التوسعة الداخلية ذات السقف المنخفض ..!

ذلك أن الطابق الأعلى سيتحول بعيد دقائق إلى المكان الأخطر على الإطلاق ..

أثناء سيرنا المتردد أخبرنا أحد الأشخاص بأن نلبس الأحذية على السجاد.. وكان خلال ذلك يلبس حذاءه !

صرخت في وجهه مستنكراً :

(مستحيل .. لك وين عم تلبس صباطك على السجاد ..شو عم تساوي.. ما بيصير ؟!!)

نظرت حولي فإذا بالجميع يرتدون أحذيتهم ..

ضايقني المنظر وحز في نفسي ، لكن لم يعد لدينا خيار ، فالسجاد صار مصدراً جديداً للأذى مع امتلائه بالكامل بشظايا البلور المهشم

التي تحولت بدورها لسكاكين مشهرة على أقدامنا العارية ..

أثناء الفوضى، صعد أحد الشبان الرشيقين نحو الكاميرا الكبيرة الموجهة إلى المنبر ووضع عليها بحركة انفعالية كرتونة كبيرة لدفنها ، وكأنه ينتقم من مراقبتهم وسلطتهم علينا !

هناك في التوسعة تكتل الناس مبتعدين عن الأبواب ، كنت أمشي وأنظر لوجوههم ..
البعض جلسوا ساندين ظهورهم على الحائط محاولين الاسترخاء، والبعض الآخر وضع رأسه بين يديه وأخذ بالدعاء ، والبعض لم يكن ليستطيع منع قدميه من الحركة المستمرة والذهاب والإياب والدوران في نفس المسارات المتداخلة العديمة الفائدة .
وعدد كبيرٌ منهم كان مشغولاً بالحديث على الهواتف المحمولة ،
شاهدت أكثر من شخصٍ يقف ويقول للناس: **(دقوا لمعارفكون دقو لكل الناس اللي بتعرفوهون .. دقوا لكل شي ارقام بتليفوناتكون ... خبرو كل الناس ... لازم الخبر يوصل للجزيرة والعربية ..)**

رأيت وجوهاً كثيرة وردود أفعال أكثر .. لكني لأول مرة مذ دخلنا المسجد أرى ذعراً بهذا الحجم في عيون الناس، كل الناس على اختلاف مواقعهم ووضعياتهم وأعمارهم ..
لم يكن خوفاً في الحقيقة ... لقد كان ذعراً حقيقياً .

واحد من الأشخاص الذين جلست إلى جانبهم كان شاباً ربما في السادسة عشرة من عمره، يجلس لوحده تحت النافذة.
لا أعتقد أني سأنسى ملامحه خلال السنوات العشر القادمة.
كان يضع قبعةً رياضية بيضاء في محاولةٍ رمزية لاواعية منه لإخفاء أكبر مساحة من رأسه وإبعاده عن الخطر القادم .
فضلاً عن انطباعاته المضطربة ووجهه المتعرق ، كانت عيناه المحمرتان تبوح بتوتره العظيم بحركةٍ مرتجفة عشوائية ، كلما نظرت إليه وجدت عينيه تلتمعان وتغرقان في الدمع من غير أن تنزل دمعة منهما ..
لأكثر من خمس دقائق كان وجهه يهمّ بالبكاء دون أن يبكي .
تذكرت نفسي في حصار مسجد الحسن في الميدان قبل ثلاث أشهر ، كنت كذلك وحيداً، و أجلس جلسته .

رغبت أن أفتح حديثاً ما معه، لأمسح عن روحه بعض الترويع،
وددت لو ضممت رأسه وقبلته وأعطيته بعض الأمان الذي أفتقدُه.

وقفت مجدداً وابتعدت.. ولم أستطع أن أقول له كلمة

في اللحظات التالية شهد المسجد أقوى الهجمات على الأبواب، الهجمة التي دمرت أعصابنا بزمن قياسي ..

كانت مدوية لدرجة أنها ولدت موجة فائقة من الهلع الجماعي، اجتاحت فضاء المسجد ، ودفعت بالبشر المتناثرين هنا وهناك ليلتصقوا جميعاً خلال لحيظاتٍ بالجدران البعيدة عن الأبواب.
وكأن قوةً هائلة شفطتهم نحو أعمق وأبعد النقاط في الجامع !

معظمنا أمسك بيده شيئاً ما استعداداً لما سيحدث في الثواني التالية..
إن دخلوا سنضطر للدفاع عن أنفسنا ، وسيضطرون على الأغلب لفتح النار إذا لم يسيطروا على الوضع .

مرت دقائق سوداء لا توصف، أدركنا معها كلنا ألا قوةَ في هذا العالم يمكن لها أن تحمينا منهم

انهال العجز علينا دفعة واحدة ، وأفرَغَنا من كل معاني التدبير والتفكير والمنطق..
هجم الضعف على أجسادنا وأرواحنا معاً.. و أخار كل قوانا .

رفعنا أنظارنا نحو السماء التي لا نراها ، وأخذنا ندعو وقلوبنا تكاد تنفلت من صدورنا :

(يا الله ..... ما لنا غيرك .. يا الله مالنا غيرك يا رب ..)

وانطلق هتاف خافت مرتجف من مجموعة صغيرة :

(اللهم اكفيناهم ... اللهم اكفيناهم ... اللهم اكفيناهم)

حاول بعدها أحد الشباب توزيع كدسه من أجزاء المصاحف على الناس ، ليقرؤوا الآيات القرآنية ، لكن أحداً لم يستطع التركيز في قراءته لأكثر من أجزاء الدقيقة الواحدة .

كان الناس يقفون في منتصف المسافة بين التسليم المطلق لله ، وبين ارتجافهم وخوفهم الموضعي الذي يجبر حركاتهم وانفعالاتهم على الانفلات ، ويحملهم قسراً على التفكير بحماية أرواحهم التي كانوا قد وضعوها للتو بين يدي الله بعد إن ضاقت كل سبلهم البشرية ..

تكشف لحظات الخوف عن مساحة النزاع في أرواحنا بين غريزة الحياة وبين الإيمان ..

تعمل الغريزة المستحيل لإبقاء الجسد حياً ، تتمدد فينا بسرعة فائقة، وتأسر كل ذرة بكياننا لتصل إلى التحكم المطلق بسلوكياتنا

وتسخيرها لحمايتنا .. ضاربةً بعرض الحائط أي اعتبارات تتعلق بالإيثار أو مساعدة من حولنا أو التفكير بالمستقبل ، متجاهلةً كل القضايا التي آمنا بها حد اليقين ... فتكشف الغطاء عن هشاشة الإيمان .

كنا نرفع رؤوسنا قليلاً لنستدعي اليقين بأن الله سيحمينا، لأننا مستضعفون ، ولأننا مهددون في ضيافة بيتٍ من بيوته ، وما يلبث اليقين أن يبهت بحضرة الغريزة المشتعلة في جباهنا على شكل مزيج مقيت من الغضب والتوتر والخوف، الخوف الذي يريد جذبنا بأي ثمن نحو الأمان ...

عادت إلي صور الرجال الذين حوصروا قبل أشهر في المسجد العمري بدرعا ، دون أن تغيب أصلاً، كنت طوال الوقت أرى أمامي عيونهم وهم ينظرون إلى آلات الموت قبيل فتح النار عليهم داخل المسجد.
وأفكر بمدى الشبه بينهم وبيننا الآن .
كانوا يدعون الله عند منتصف الليل أن يحميَهم..
لكن المجرمين دخلوا .... و أطلقوا العنان للرصاص، غير آبهين بكل

ذلك.

كذلك الله ، لم يرأف يومها باستجداءاتهم المحمومة وضعفهم المبذول في بيته .. ولم يتدخل لحمايتهم..

أيوجد موتٌ أكثر إيلاماً ؟

الوضع بات أصعب من أن نستطيع احتماله ، كنا نتساءل :

(وين الشيخ أسامة ؟ وين معارفو ؟؟ ما يساوي شي ؟؟ يدق لحدى ... معقول ما بيعرف حدا ... يدق لوزير الأوقاف .. لابن الكلب بشار ... لأي حدى ..)

فجأة ... بدأت محاولات الهجوم على الأبواب تتناقص .. !
وتناقصت معها ذبذبات التوتر والذعر المسيطرة علينا .

مع الارتياح الذي شعرت به لثواني، جابت رأسي رغبةٌ عارمة بالبكاء كانت شبه انهيار داخلي لا مجال لإخراجه ، أردت فقط أن أهبط بثقل جسمي على أي شيء صلب ..

الجدير بالذكر أن الشباب الذين يقفون على الأبواب تمكنوا من اصطياد واحد من الشبيحة وجره إلى الداخل ، تم أخذه إلى منطقة المنبر وكمية كبيرة من الناس ينهالون عليه بالضرب ويفرغون غضبهم و خوفهم في جسده .
علمت لاحقاً ، أنهم أدخلوه وسجلوا اعترافاته على مقطع فيديو.

منظره مسحولاً بكتلة دناءته المتطايرة أثلج صدورنا للحيظات معدودات .

تضاءل الخوف من احتمال اقتحام المسجد ... ليبدأ بعدها فصل جديد لم نتوقعه من فصول المسرحية.

تحطيم المسجد

كان ثمة باب موجود في الممر الخارجي –المُسيطَر عليه من قبل الأمن –يؤدي إلى الطابق الأعلى (السدة).

ويبدو أنهم خففوا هجماتهم على الأبواب الداخلية عندما استطاعوا كسر هذا الباب والصعود إلى فوق.

سقط الطابق الأعلى في أيديهم .. وتحول فوراً إلى منطقة إستراتيجية مرتفعة تعلو رؤوسنا وتهددنا باستمرار.

أثناء اجتياحهم "السدة" التي أردتُ قبل قليل الصعود إليها ، كان بعض من بقي في الأعلى من المصلين يرمون بأنفسهم نحونا ، ساعدوهم بوضع قطع الإسفنج الكبيرة تحتهم ليسقطوا فوقها!!

موقف مضحك مبكي .. لا يضاهيه في هزليته إلا منظر أحد الأشخاص ،الذي يجلس في الزاوية يتناول وجبة سحوره بشهية أثناء هذه الأحداث !!!!

أخذوا يرمون بكل ما يقع تحت أيديهم على الناس المتناثرين في الأسفل ..
لنصف ساعة متواصلة كانت سماء المسجد تهطل أغراضاً عديدة : زجاج بأنواعه .. نيونات الإضاءة .. مصاحف .. زجاجات العصير .. مبردات المياه الكبيرة المعدنية والبلاستيكية .. قطع وأنابيب مختلفة بما فيها حاملات المصاحف ، الكراسي.. وكميات كبيرة من المياه كانوا يصبونها تارة على السجاد وتارةً على طرف الحائط لتمر على الأسلاك الكهربائية المنفلتة وتتكهرب أثناء نزولها نحونا !

البعض كانوا يقذفون بصواني معدنية على المراوح لإسقاطها على رؤوسنا !
أكاد أجزم بأنهم لو بقوا في المسجد ربع ساعة إضافية لتمكنوا من إسقاط الثريا الكبرى المتدلية من القبة.

أصيب عدد جديد من الشباب بالقذائف الزجاجية على الرغم من أن معظمنا كان يقف تحت المنطقة المسقوفة المحمية.

عند رغبة أحد الناس بالانتقال بين منطقة المنبر و منطقة التوسعة كان يضع على رأسه (طراحة) كبيرة أو صَينية معدنية لحمايته أثناء

المرور.
التراجيكوميديا بلغت أوجها هنا !

لم يكن أحدٌ يصدق أن المسجد يتحطم أمام أعيننا بهذه الوقاحة.

أغمضت عيني للحظاتٍ ، ظننت نفسي بحلم ..
طغى على المكان والزمان طابع دراماتيكي ، أخذت الأحداث تمر به حولي بحركة مبطأة وبأصوات هذيانية ..

لهول ما يحدث صار الناس يصرخون بهم من الأسفل بصوتٍ موحد : (**هادا بيت الله ... هادا بيت الله .. هادا بيت الله**)
استسخفت الهتاف جداً... لأن بهيميتهم لم تكن لتسمح لهم بفهم حرفٍ واحد من هذا !

كانوا عبيداً حقيقيين لربهم الأسد، آلاتٍ مبرمجة عقائدياً، من شاهدهم وهم يمارسون التخريب، سيعي حتماً البعد الطائفي لسلوكياتهم الحاقدة، المفرطة في التطرف .

طوال الوقت كانت تتوالى على سمعي أصوات الناس وهم يقولون بحزن عميق :

(**اليهود ما ساووا هاد الشي** ....)

حقاً – ليس مجازاً – اليهود لم يفعلوا ذلك .

أما المشهد المغالي في دراميته من الحصار ، فكان إسقاط أكبر الخزائن الخشبية الموجودة في الطابق الأعلى نحو الأرض.

معظم مقاطع الفيديو التي شاهدناها لاحقاً تصور الفوضى العارمة التي خلفها هؤلاء بعد انتهاء المشكلة ، لكن أحداً لم يلتقط لحظة سقوط هذه الخزانة ولم يسجل صوتها أثناء ارتطامها بالأرض.. وقدرتها على نثر كمية هائلة من قطيرات المياه والشظايا الزجاجية الميكرونية التي كانت قد أشبعت السجاد مسبقاً في منطقة الارتطام. في هذه اللحظات بالذات تمنيت لو كان معي "handy cam." لأوثق تفاصيل كهذه، والتي كانت لتشكل مادة دسمة لفلم وثائقي هام، بإمكانه أن يهز العديد من التماسيح البشرية التي تعيش بيننا، في بيوتنا أحياناً ، تأكل وتشرب ، تشاهد المسلسلات وتجتر التفاهة ، ثم تحمد الله على جيش الأسد الباسل الذي يلاحق الجماعات الإرهابية.!

حتى مكيفات الهواء الكبيرة التي لم يستطيعوا اقتلاعها من أمكنتها قاموا بنزع أنابيب الغاز الموجودة فيها وتوجيهها علينا لإخافتنا ، صوت تنفيس الغاز الأبيض الكثيف كان يوحي بالخطر ، وظننا لدقائق أنها قنابل غازية سيتم خنقنا بها .

لكن سرعان ما توضحت الأمور ، وأخذ الناس يقولون لهم :

-(غاز المكيف يا جبناء يا كلاب ... لك العبو غيرها)

شخصياً لم يؤلمني كثيراً ما فعلوه بالمسجد ، كما لم يؤثر بي هدم مآذن المساجد في حماه ودير الزور ..

على العكس ،كنت أرى أنهم بهذه الطريقة يخسرون مساحةً أكبر بكثير من التي يربحونها ..

بغض النظر عن الفضيحة الإعلامية المجلجلة التي خرجوا بها من اقتحام حماه وسيخرجون بها اليوم ، سيكون هذا النوع من التصرفات دليلاً إضافياً لإدانتهم لا مجال لتبريره أو الالتفاف عليه..

وربما يكون طريقةً لتحريك الكثيرين من المحسوبين على المساجد ، الذين يعتبرون أن المساجد ورجال الدين خطاً أحمر لا يجوز المساس به ، دون أن تحرك دماء آلاف السوريين بهم شعرة منذ خمسة أشهر!

أعتقد أن مثل الذي حصل اليوم ، عليه أن يلامسهم أكثر من أي شيء آخر ...

فلتتحطم المساجد ولا تسقط قطرة دمٍ واحدة...
أصبح همي أن نخرج جميعاً سالمين، وكل شيء في المسجد يمكن إصلاحه وتعويضه.

كثير من المتواجدين شاركوني تفاؤلي بهذه النقطة بطريقةٍ أخرى ، كانوا يرون أنهم بهذا الاعتداء السافر على بيت الله ، قد دخلوا مرحلةً جديدة من التحدي المباشر للذات الإلهية ، وأن حربهم الآن هي ضد الله نفسه .

أحد الذين أذهلوني بشجاعتهم كان شاباً يحمل جواله ويوجه الكاميرا مباشرةً إليهم ، وهو يقف في مرمى قذائفهم الزجاجية ، ليس فقط ليصور الفظائع التي يرتكبونها ، بل ليلتقط وجوههم وأجسادهم أثناء طقوس جنونهم ، وكأنما ليقول لهم : ابتسموا

للكاميرا !

ذكرني بالشاب الدرعاوي الذي كان يصور عناصر الجيش أثناء دخلوهم درعا ويقول في وجوههم :

(كوصني ... كوصني ...

بدي خلي العالم كلو يشوف شو عم يصير بمحافظة درعا)

يذهلنا أمثال هؤلاء الرجال .. تذهلنا جرأتهم وإيمانهم في كل يوم يمر علينا من الأزمة ...

يذهلون فهمَنا لقوانين الحياة والموت .. لقوانين الإنسانية والوطنية ... لقوانين يومياتنا البليدة التي تعجز عن تفسير تصرفاتهم.

ويفاجئنا وجودهم بيننا نحن الذين ظننا أنهم حكر على شاشات السينما .

ربما بدأت أفهم كيف يتلقف بعضهم الرصاصَ بجسمه الحي دون أن يتزحزح من مكانه ، بدأت أفهم كيف يموت الناس هنا في سوريا..

AM 4:05

لم يبقى لديهم في الطابق الأعلى شيئاً ليقذفوا به !

خطرت في بال أحد الشباب فكرة رائعة :

لدينا مكبرات الصوت كورقة رابحة ، المكبرات التي تستخدم في الآذان والموجهة نحو الخارج .
(بدنا الإذاعة ... بدنا الإذاعة... شغلو الإذاعة)
نشر فكرته وأخذنا نهتف..

أردنا أن تُستخدم مجموعة الإذاعة بشكل كامل وواضح وعلني لأول مرة لتوجيه نداءات الاستغاثة للخارج..

لكن للأسف ... لم يتحقق ذلك.
ولا أدري حتى الآن من هو المسؤول عن عرقلة الفكرة .

سمعنا فجأة الشيخ أسامة الرفاعي يتحدث على الميكروفون .

لأول مرة نسمع صوته بعد كل هذه الأحداث التي احتجنا وجوده فيها ، كنا نظنه قد خرج وتركنا .
توجه بكلماتٍ معدودات إلى الموجودين في الأعلى :
-هلأ جاية العميد (،،،،) وبتتفاهمو معاه.

لم أعد أذكر اسم العميد الذي قاله لكني أذكر جو الارتياح الذي هبط على المسجد كله..
إذن قام الشيخ أسامة باتصالاته وستحل المشكلة أخيراً.

من حيث المبدأ زال الخطر المباشر ، وساد الهدوء لفترة توقف فيها الهجوم من الأعلى ومن الأسفل .
بعد قليل عرفنا أنهم نزلوا وأن (السدة) لم يعد فيها أحد .

لكني لم أشعر بالراحة المطلوبة ... كنت أفكر فيما إذا كان علينا أن نقتنع أن العميد المذكور ليس على علمٍ بما تفعله كلابه المنفلتة بالمسجد ، وأنه سيأتي مستاءً ليوبخهم ويحرمهم عشاءهم ، ويُخرج المصلين من الحصار !!!

وماذا بعد ..؟
زال احتمال اقتحامهم ، لكن ماذا عن خروجنا واجتيازنا لأطنان الكلاب المسمرة في محيط المسجد؟

جلسنا أنا ورامي لنرتاح قليلاً عند أحد الدعامات ..
رامي الذي لم يتوقف عن شتم بشار الأسد لينفس غضبه ، نظر في الفراغ وقال لي بعد أن كان صوته قد بُحّ تماماً:
– بتعرف أنو بشار طلع واحد كلب ابن كلب ؟؟
رغبت أن أضحك بقوة ، لكني لم أستطع ..نظرت حولي إلى آثار التحطيم والدماء و اكتفيت بابتسامةٍ ساخرة .
– شكراً عالمعلومة الجديدة .!

برغم كل شيء كان رامي فرحاً ومتفائل ... نظر الي وقال :
– انتصرنا غصب عن راسون .. الكلاب انقلعو
– لك شو انتصرنا ؟ وين شايف الانتصار ؟
– ريحنا هي الجولة .. شوف كيف ما قدرو يفوتو
– أنا بظن أنو لو بدون يفوتو كانو فاتو ..
– جاية العميد و بدنا نقلو ما لنا طالعين غير ليطلعو المعتقلين

–مجنون انت !! أي معتقلين ؟؟؟ معقول قديش عم تحلم؟
–يعني يروح كل شغلنا عالفاضي ؟ معناتها ما في فائدة ؟
وما رح نقدر نساوي شي بحياتنا .. وبلاها هالثورة.!!!
–يا رامي شو معنا نفاوضون فيه ؟ اتطلع حواليك مافي قدامنا خيارات ..
اذا قدرنا نطلع اليوم من هون وننام ببيوتنا بيكون يكتر خير الله ..
بعدين المظاهرة حققت الهدف منها ، بكفي انو قدرنا نعمل هيك شي هون
بنص البلد وبهي الطريقة.. وبهاد الحجم.
هاد اقصى شي بنقدر نحلم فيه بالفترة الحالية ..

بقيت آراؤنا متضاربة فيما يتعلق بهذا الأمر حتى اللحظة الأخيرة .. أنا لا أريد التفاؤل بأكثر مما تسمح به بالوقائع، لأن التفاؤل في غير موضعه ينتهي غالباً بخيبات أمل عميقة ليس من السهل تجاوزها ، على عكس صديقي الذي كان يرى أن التفاؤل والإصرار على الأشياء هو الطريق الوحيد للحصول عليها .

أمسك ابن الشيخ أسامة –الذي علمت لاحقاً أن اسمه بلال – الميكروفون وتحدث للناس قليلاً ، طمأنهم وطلب منهم التجمع عند المنبر وتشكيل حلقة والجلوس جميعاً .

ترددنا بالجلوس بسبب الزجاج الذي فرش الأرض..

بعد دقائق رأينا تجمعاً غريباً عند الباب ، كان الضابط المنتظر قد وصل ...

المفاوضات

فتحوا الباب له بعد أن تأكدوا من خلو الممر الخارجي ، كان معه رجلين أو ثلاثة فقط، أحدهما يلبس الزي العسكري... تكلم القادمون من الخارج مع الشيخ قليلاً ثم أخذ العميد ذو المظهر المعتدل واللكنة الشامية الميكرفون وبدأ الحديث للناس بكل ثقة ، وبطريقة مطمْئِنة :

"السلام عليكم .. رح نطلع هلأ نحنا وياكون لبرا .. وبوعدكون وعد انو ما حدا يتعرضلكون... يا جماعة كلياتكون بتعرفوني مين أنا ، بتمنى انو تتعاونو معي مشان اقدر طلعكون من هون ، هلأ رح نمسك ايدينا ونطلع بهدوء ،.. ، الساحة الورانية فضينالكون ياها ، وما فيها حدا ..أنا بنفسي رح طلعكون بس عالسريع ومن دون صوت .."

أخذ كل واحد فينا ينظر في الآخرين حوله ..

وتبادلنا بعض الأسئلة السريعة المتضاربة :

– مين هاد ؟ حدا بيعرفوا ؟

–لا والله

–شوفو الكلاب باعتين واحد شامي لحتى نثق فيه ونصدقو..!

وقفوا عند الباب ينتظرون ردة فعلنا بفارغ الصبر ..

كنا نعلم مسبقاً طبيعة خبثهم، لكن الإنسان مع ذلك ،وبشكل لاإرادي، لا يستطيع إلا أن ينتظر الخير ممن يكلمه بلطف وطيبة ، خاصةً بعد المرور بظروفٍ منهكة نفسياً كالتي مررنا بها .

انتظرنا كلمة من الشيخ أسامة ليقول لنا ماذا سنفعل ، فهو كبيرنا ، ووجوده معنا كان أكبرمصدرٍ نفسي للأمان ،

مع ذلك.. يمكننا بسهولة أن نستنتج أن أسامة الرفاعي لا يستطيع حمايتنا بشيء، فمكانته الاعتبارية لم تعد تصلح مع حيوانيتهم .. خاصةً وأنهم كانوا يعلمون بوجوده في المسجد عندما قاموا بحفلة التدمير .

كنت طوال الوقت واثقاً أنهم تجاوزوا هذه المرحلة .

وأنهم مستعدون في أي لحظة لقطع الحبل الهزيل الأخير بينهم وبين رموز الناس .

وهذا ما أوقفني عن التفاؤل و أبقاني مشدوداً.

سادت بلبلة كبيرة في الجامع بعد كلام العميد ، انقسمنا فيها بين مؤيد للخروج وبين معارض له .

لكن معظمنا كنا غير واثقين بكلامه، فلا تزال قصة غدرهم الأولى عالقةً بذاكرة المكان نفسه ...

في الشهر الثالث حاصروا مجموعة من المتظاهرين هنا في نفس المسجد لمدة ثلاث ساعات بعد صلاة الجمعة ، تم تأمينهم بعد ذلك والتعهد للشيخ أسامة بعدم المساس بهم ، وما إن أصبحوا في الخارج ، انهالوا عليهم بالضرب والاعتقال أمام عينيه !

تكلم الشيخ أسامة :

-العميد عم يقول أنو الطريق آمن للساحة الخلفية ، اللي حابب يطلع يطلع ، واللي خايف يضل ، على راحتكون.. لنشوف شو بدنا نساوي.

العميد عم يتعهدلنا أنو الأمن راح و أنو فينا نطلع .

بلبلة جديدة ..

لا نثق بهم ، لكن العديدين كانوا قد تعبوا وسيطر عليهم الملل من هذا الوضع العقيم ، فرغبوا بالمخاطرة ..

خرج عدد قليل من المخاطرين -على الرغم من تحذيراتنا - بعد أن كان العميد ومن معه قد خرجوا.

كان وقت أذان الفجر على وشك الدخول ، دون أن يكون لصوت الأذان متسع..
قال البعض بأنها أول مرة منذ بناء مسجد الرفاعي يغيب أذان الصبح عن ساحة كفرسوسة .

في الدقائق التالية انتشر خبرٌ رفع معنوياتنا للسماء بلحظة واحدة ..

وصلت أخبار حصارنا في المسجد لقناة الجزيرة وهم يضعونه الآن على شكل خبرٍ عاجل ... والبعض قال أنهم يبثون صوراً مباشرة لساحة كفرسوسة، و أن العالم كله في الخارج أصبح على علم بما يحصل ويترقب ما سيحصل في الدقائق التالية..

كان ذلك أقصى ما يمكن أن يفرحني حدَّ النشوة، حتى أكثر بكثير من لو أنهم سمحوا لي بالخروج ..
بوسعي الآن أن أقول أننا كسبنا إحدى الجولات وربما أهمها.
لم أكن قبل دقيقة متفائلاً بأن الأمر يمكن أن يأخذ هذا الحجم ، سيما وأننا في ساعة متأخرةٍ من الليل ، ولا يشاهد الناس نشرات

الأخبار في هكذا وقت عادةً.

بعد قليل طمأنَ الشيخ بلال الناس بأن المشكلة على وشك الانتهاء..و أن عليهم أن يهدئوا من نفوسهم ، ويحاولوا الاسترخاء ويتحضروا لصلاة الصبح...

وقبل أن ينهي حديثه ... حذرنا من الخروج لأنه وصله أن الذين خرجوا قبل قليل قد تم اعتقال حوالي 90 % منهم !!!!

نزل الخبر علينا كالصاعقـة ..
أعادنا إلى نقطة الصفر ..و أشعل الغضب مرةً أخرى في مساحات المسجد .

–الساحة الورانية محاصرة بالكامل بالأمن وأي شخص عم يطلع عم يعتقلوه ، لا حدا يطلع لقلو أنا شخصياً.

يكرر الزمن نفسه في ذات المكان وبذات السيناريو وخلال أشهر فقط..

يحاصرون الناس في المسجد ويعدونهم بالأمان ...

وعندما يصبحون في الخارج ينقضون عليهم بقدر هائل من الحقد الطائفي.

ذات الحقد المعتق الذي كان ينضج في عقولهم المشوهة خلال السنوات الطويلة الماضية دون أن ندري – نحن الذين نقيم معهم في نفس الوطن –.

عاد التوتر ليكتسح المشهد ، لكن فرحتنا بفضيحتهم الإعلامية وحدها ما يبقينا على قيد التوازن ، ويبث فينا دفعاتٍ متوالية من التفاؤل مع كل خبرٍ يأتينا من الخارج عن انتشار القصة .

بصفاقةٍ فاقت كل الحدود ... عاود العميد ذو الشعر الأبيض دخوله إلينا مع مجموعة جديدة من أزلام الأمن والعسكريين ، وكأنهم هذه المرة أعادوا غمس أنفسهم بطبقة جديدة من الدناءة ، بعد أن فقدوا

بعضها عند دخولهم الأول !

أمسك الميكروفون وبدأ بالحديث مُطلقاً حزمة جديدة من الوعود!!!
لكن هذه المرة لم يسكت له أحد .. عند كل كلمة كان يتعرض لمقاطعة مهينة من أصغر مراهق في المسجد ..
قاطعوه بأصواتهم المتضاربة :

-شو الضمانة ... عطونا الضمانة ؟

- مالنا طالعين غير كلنا سوا .. عشرة عشرة وشوي شوي مالنا طالعين

-عالساحة الورانية مالنا طالعين ، اذا بدنا نطلع بنطلع من الباب هاد .. قدام الناس كلها .

رفع رامي صوته أكثر من ثلاث مرات :

- انتو مالكون عهد ... مالكون وعد .. مالنا طالعين

خلال كلامه عن آمان الوضع في الخارج، كان بعض الشباب الذين يقفون حوله ليستمعوا ، يديرون ظهورهم إليه بين دقيقة وأخرى ويتوجهون للناس، يرفعون أيديهم على مرأى منه ويلوحون بإيماءة

تعني أن لا تصدقوا كلمة واحدة من كلامه ...!

لعله من المستحيل أن يقع آخرون في نفس الحفرة بعد أقل من نصف ساعة، ومع ذلك كنا خائفين كثيراً من غباء البعض.
أخذنا نجول الجامع ونقول: إياكم والخروج .. سيعتقلونكم .

تحدث العميد مطولاً ، وتحدث اثنان آخران بعده عدة مرات متتالية... ووصلوا لحد تهديدنا بالاعتقال من داخل الجامع إذا لم نخرج ..
–هلأ مأمنيلكون طلعة ، بس بعد شوي ما عاد نقدر نمسك الأمن اللي برا ، بدون يفوتو يعتقلوكون اذا ما بتطلعو

بلغ عددهم مع العميد حوالي السبعة .. ودخلَت بعد قليل دفعة ثانية مماثلة من الباب الشرقي ..
أثناء تجوالهم كانوا يختلسون النظر إلى مظاهر الحطام حولهم.
بدوا لي سعداء، على الرغم من توترهم ورغبتهم بإنهاء هذه الأزمة .

أظن أن ما حدث لم يكن عفوياً وليد انفلات بعضهم ،
فالزمن الطويل الذي استغرقته هذه العملية وتواجد كبار الرتب العسكرية والمدنية في المكان .. كل ذلك كان يشير إلى وجود توجيهات قادمة من أعلى المستويات للقيام بما قاموا به.

خلال العشر دقائق التالية انتشروا داخل المسجد، لكننا لم نكن خائفين كثيراً من اندساسهم واختفاءهم بيننا ..
فوجوههم تخبر عنهم دوماً.

الضباط المدنيون كان مرورُهم بأي مكان كافياً لغمره بسيل من ذبذبات الغثاثة والوضاعة.

تقطر الحقارة بلزوجة من زوايا أفواههم عندما يبدؤون بتوزيع ابتساماتهم القميئة، في محاولات فاشلة لأن يتخذوا مظهر البشر. ونواياهم التي تكاد تكون مرئية جداً تنحت معالمهم دون أن يدروا .

أما كلابهم المرتزقة ، فالأمر أبسط من ذلك بكثير ..
الرائحة النتنة التي تسبقهم بعشرات الأمتار ، تعرّف بهم من غير عناء !
وعند النظر إليهم ستكشف وجوهُهم الكالحة –قبل ثيابهم –عن وضاعة أصلهم ونشأتهم، وانتماءهم لأردأ الطبقات الاجتماعية، حيث القذارة وانعدام القيم .

لم يكن مشهد انتشار هؤلاء بأحذيتهم في مسجد الرفاعي وقت الفجر أقل إيلاماً من مشاهد اعتدائهم بالضرب سابقاً على خيرة الشباب الدمشقيين المتعلمين الذين ينتمون لأرقى العائلات في الميدان و كفرسوسة ..

AM 5:00

مرت ساعة أخرى إذن دون جدوى ..

كان وقت أذان الفجر قد دخل منذ ثلاثين دقيقة ، وبدأ الزمن المتسرب يستنفذ آخر قوانا .

إلى متى سننتظر ؟ وما الذي ننتظره ؟

لم أعد أذكر الحدث الحرج الذي جعلنا أخيراً نتخذ قراراً جماعياً بالخروج.... معاً ..... كتلة واحدة... دفعة واحدة .

إذا كان لابد من اعتقالنا .. فلنكن جميعاً.

قررت بشكل جدي أن أتحضر لاحتمال الاعتقال..

بدأت أسلم نفسياً به . فمازال الاحتمال الأقوى ، كما لا تزال مئات الوحوش تتربص بخروجنا على كل منافذ المسجد.

أخبرني رامي بضرورة دخولنا للحمام قبل الخروج ..

لأن تعرضنا المحتمل لهجومٍ مسعورٍ ما قد ينجم عنه انفلات مصراتنا البولية !!

استسخفت الأمر في البداية ، لكن رامي أقنعني أن الموضوع فيزيولوجي بحت وخارج عن إرادتنا وليس بعيد الحدوث في مواقف كهذه ..

وافقت ، فآخر ما كنت أنتظره في نهاية هذه الليلة هو أن أتعرض لشيء مماثل !

عند دورات المياه والموضيء وقف عدد كبير من المنتظرين دورهم في طابورٍ طويل .....

تكتلنا قريباً من الباب الذي يطل على الممر الخارجي وأمسكنا بأيدي بعض ، لنصنع صفوفاً طويلة متماسكة، ومتراصة قدر الإمكان ..

وبدأنا المشي...

لحظة اجتيازنا للباب .. صرخ الشيخ أسامة على المكبرات :

-وقفو ... وقفو ... لا حدا يطلع .. رجعو .... الكل يرجع

و عودة جديدة إلى نقطة الصفر ..

لم نفهم لماذا وقتها ..

رجحنا أن يكون خبر ما قد وصل الشيخ للتو عن طريق الهاتف يحذره من تحضرهم لاعتقال الجميع .

بكل الأحوال كان بإمكاننا أن نشاهد بأعيننا – من خلال النوافذ المفتوحة على ساحة كفرسوسة – المئات يعسكرون مسلحين بعتاد حربي كامل ، لا ينقصه إلا الدبابات، يصطفون على شكل كتلة مصمتة لا يمكن لشيء اختراقها، ويوجهون الرشاشات إلى المسجد..

في حين لا يتوفر أي شباك يطل على المساحة الخلفية الموجودة وراء الجامع ليطلعنا على ما يجري فيها .

قرر الشيخ أسامة بعيد منعنا من الخروج أن يخرج بنفسه مع بعض طلابه ..

قبل خروجه تجول بين الناس ليطمئنّ عليهم ويطمئنَهم .

حاول أثناء ذلك إخفاء توتره وارتباكه بصعوبة ، لئلا ينقله لنا..

كان الشيخ الكبير يستجمع حكمة سنواته السبعين كلها ليجد لنا مخرجاً بأقل التكاليف الممكنة ، أو على الأقل ليلملم حالتنا المتردية.

أثناء مشيه بين الناس كانت تنهال عليه أسئلة محمومة متضاربة من كل الجهات ، بعضها بمعنى وبعضها الأخر دون معنى ،
تذمر وتظلمات وشكاوي عبثية جوفاء ...
هنالك أشخاص كانوا غاضبين منه وغير راضين ..!

عند بعض الناس يعبر الخوف عن نفسه بطرقٍ غريبةٍ غير مفهومة . عقولهم تعيد تعريف الوقائع بإطار جديد منفصل لإخفاء المشكلة الحقيقية وبالتالي تخفيف الضغط عنهم .
بعض هؤلاء لم يكن بمقدورهم أن يستوعبوا أننا وصلنا فعلاً للمرحلة المرعبة التي لا يستطيع فيها حتى أسامة الرفاعي أن يفعل شيئاً ..
لذلك كانوا يقنعون أنفسهم ربما بأنه يستطيع القيام بأكثر من ذلك بكثير لحل المشكلة لكنه يمتنع ويتنصل لكي لا يورط نفسه معهم..
وهو ما سبب امتعاضهم العلني للشيخ برغم كل ما كان يقوم به هو وأولاده ..

والبعض كان قد تعب حقاً ، ولا يعرف إلا أن الشيخ أسامة هو كبير المسجد وعليه بأي طريقة إيجاد حل ما !

الغريب أن حالتنا في هذا المكان المغلق حطمت كل الحواجز أمام آرائنا وتصرفاتنا المتغايرة والمتطرفة وفتحت المجال للتعبير عنها ..

هنالك أناس انعزلوا في الزوايا مع أنفسهم بالبداية حتى في المظاهرة نفسها، أصبحوا الآن يرفعون صراخهم لشتم الأسد علناً في أصغر موقف حرج .

البعض أحاطوا بالشيخ أسامة ليحموه بأرواحهم ، وآخرون أشبعوه انتقادات..

البعض يحاولون تنظيف السجاد بأيديهم من الزجاج المكسر ، وآخرون يستسخفون عملهم عديم الجدوى الذي لا يمكن أن ينتهي وفق هذه الطريقة بسنة أخرى !

لكن الأكثر غرابة أن روحاً ما كانت تضمّنا في ذلك المكان طوال

الوقت، تجمعنا كما لا يمكن لنا أن نجتمع خارجه ، توحد إيقاع فوضانا دون أن تنظّمنا .

تنقل بين أجسامنا المتناثرة إمدادات شفافة من الإحساس والحب، وتجعل للعبثية معنىً . .

خرج الشيخ أسامة مع بعض طلابه.. إلا أن جزءاً من القصة، قد يكون أخطرها ، بقي خافياً عنا حتى خروجنا .. وتفاصيله لم تكتمل إلا بعد يومين أو ثلاثة ...

بغيابه استطاع بلال أن يدير الأزمة بشكل أكثر من رائع ، كان حريصاً جداً على ألا يُخرجوا أحداً من المسجد دون علمه.

بين فترة وأخرى يطلق تلميحات جدّ حذقة يوجهها للناس خلال تواجد الأمن واستمرارهم بمحاولات اقناع بعضنا.

ففي الوقت الذي يتكلم به الضابط عن الخروج ، يقول هو بدوره:

– يالله يا شباب ، هدولي حالكون شوي ، وروحو توضو .. بدنا نصلي الصبح جماعة ..

او يقول : **يالله بدنا نبلش هلأ بتنضيف الجامع .. بدنا نتساعد كلنا**...

الدفعة التالية من التفاؤل ، لن تتوقف عندنا ، ولن تتعلق بحريتنا فقط ، بل ستغمر دمشق بأسرها ..

زلزال دمشق !!

سارع الناشطون على الانترنت بإطلاق هذا الاسم على الحركة السريعة الغير متوقعة لأكثر من منطقة من الشام وأريافها في نفس الوقت لنصرة مسجد الرفاعي .

أخذت الأخبار تتسرب إلينا تباعاً عن عدة مظاهرات تحصل كاستجابة لما يجري معنا، على أمل تخفيف الضغط الهائل المحيط بالمسجد..

وأصوات أخرى كانت تتحدث عن زحف مباشر لمناطق مثل دوما وحرستا و جوبر و عربين إلى الساحات الرئيسية في دمشق لتكوين اعتصامات !!

اعتصامات ..

أول ما خطر في بالي عندما سمعت بكلمة اعتصامات هو مجزرة كالتي حدثت في ساحة الساعة في حمص .

من غير الممكن أن تحدث اعتصامات في سوريا !

لدى أجهزة الأمن السوري فوبيا قوية اسمها الاعتصامات ،

ومستعدة أن ترتكب مجزرة في كل مرة يحدث فيها اعتصام .

استبعدت كذلك أن تتمكن الحشود القادمة من الخارج من الوصول إلى الساحات الكبرى، فجميع المنافذ الرئيسية للمدينة مسيطر عليها بالحواجز منذ الشهر الثالث .

لكن ما أجبرني على التفاؤل هذه المرة ، هو تجمع كبير لا يبعد عنا سوى أمتار ..

تكوَّن في ساحة كفرسوسة من قبل أهالي المنطقة وأقارب المحتجزين ، يرفض الناس فيه أن يتزحزحوا قبل أن يخرج أولادهم من الداخل ..

ويمكن أن نسميه اعتصاماً ..

فاقت فرحة الناس في المسجد كل الحدود ، كأطفالٍ أعيدت لهم ألعابهم المسروقة، كانوا يزيحون الستائر بين فترة وأخرى ليشاهدوا تجمع الناس المعتصمين ، ويستعيدون من منظرهم بعض الثقة والقوة التي تبخرت من أجسادهم في الساعات الفائتة ، لدرجة أن بعضهم أخذ يلوح بإشارة النصر (V) للشبيحة في الخارج لإغاظتهم ، متناسين أنهم لم يخرجوا بأمانٍ بعد !

خلال ذلك ، بدأت تظهر ملامح جديدة للمشهد الداخلي في المسجد ..

في سابقة من نوعها.. سُمح للنساء بالولوج إلى داخل المسجد و إخراج أبنائهم المحتجزين معهم.. ربما أتاحوا لهم ذلك للملمة الوضع في الخارج وتنفيس إصرار الأهالي.
كانت أسماء الشباب الذين تنتظرهم أمهاتهم بالباب تذاع كل قليل على مكبرات الصوت من قبل الضباط المتواجدين.

بعد دقائق رأينا الأمهات تتجولن بيننا ، و شخصيات أخرى جديدة تلبس الأحمر .. اتضح أنهم من منظمة الهلال الأحمر ، أدخلوهم

لإسعاف الجرحى .

الجرحى الذين كنا قد بدأنا ننسى تواجدهم معنا .

محبوسين في المكان ، لكن الزمن يمر على جراحهم بلا حبس.

رأيناهم فجأة .. وكأننا لأول مرة .

كانوا كثر ، تم تجميعهم في أحد زوايا التوسعة ، والكشف السريع عن حالاتهم ..

أحدهم كان مصاباً بقدمه برصاصة حقيقية ، وآخر في ذراعه ،

وآخر لف رأسه النازف بقميصه ..

و إصابات الزجاج وحدها كانت تفوق الخمسة عشرة إصابة .

اقتربنا لنشاهد عن قرب كيف يسمحون لهم بالتعامل مع الجرحى ،

دون أن نستوعب أنهم سمحوا لهم أصلاً بالدخول لإسعافهم ...

لم نكن مطمئنين على الجرحى حتى مع وجود الهلال الأحمر لغرض الإسعاف .

في سوريا الأسد التي تُستعمل فيها سيارات الإسعاف لاعتقال الناس على وجه السرعة ، واستنزاف الدماء من رؤوسهم قبل الوصول لأقبية الفروع الأمنية، في سوريا التي يُصفّى فيها الجرحى على أيدي الممرضات والأطباء الطائفيين الموتورين في غرف المشافي ، يصبح دخول عناصر الهلال الأحمر إلى المسجد لاصطحاب الجرحى ، أسوء خيارٍ بعد دخول الأمن واصطحابهم بنفسه .

اقتربنا أكثر ، وتفاجأنا أكثر
كان هنالك إصابات بالغة ، غاب أصحابها عن وعيهم .
رأينا شاباً أصيب صدره بالرصاص المطاطي وأماكن أخرى من جسمه ..
وآخر في رأسه ..

بالفعل ، استطاعت الأمهات أن تُخرج أولادها ، وعلمنا لاحقاً أن بعضهن كن يعدن أكثر مرة ليخرجن شباباً آخرين من أقربائهن أو حتى من غير أقربائهن .

اجتمعت أنا ورامي بإحدى النساء ، عمرها في الثلاثينيات ، امتزجت بملامحها انطباعات الفرح والخوف بصورة غريبة..
كأنها لا تصدق أنها استطاعت الدخول ، وأن الأهالي المعتصمين في الساحة ينجزون شيئاً أقرب للمستحيل .

بوجهها الأبيض المشرق ، وصوتها المتوثب من الفرح شرحت لنا كيف يقومون بإنقاذ الخارجين.
كانت فخورةً جداً بما يحدث ..

فهمنا منها أن الناس في الخارج تكتلوا رجالاً وفتياتٍ ونساءً وشباباً وصغاراً ليصنعوا فقاعة متحركة كبيرة تتلقف مباشرة كل من يخرج

من باب المسجد ، تبتلعه لداخلها لتحميه وتبتعد به نحو منطقة آمنة .. قبل أن يصطاده الشبيحة .

إلى جانب فرحها العارم الذي يبوح عن نفسه بأكثر من طريقة ، كان ثمة توتر و رائحة بكاء مخفي يخالج صوتها بين الكلمات.
أجلسناها على كرسي و طلبنا منها الاسترخاء .

– انت ابنك هون ؟ انشالله طلعتيه ؟

– ايه .... لاء .... أنا اخي هون .....اخي

– طلعتيه ورجعتي ما ؟

– لاء ... لسا ما لقيتو ...

انهار صوتها مرة واحدة ، وتداعى إشراقها في أحد أنفاق الخوف .. تمتمتُ ببعض الكلمات العابرة ثم نصحتها بألا تخبر أحداً من الأمن المتواجدين باسم أخيها لينادوا عليه بالإذاعة ،
لأنني أكاد أجزم بأن هذه الأسماء لن يمروا عليها لاحقاً ببراءة إن أصبحت بحوزتهم .

تركت رامي لأول مرة ومشيت وحدي ، هائماً في خراب إنسانيتنا ، خلف غشاوة شفافة من الدموع.

أبكتني المرأة ، ولأول مرة لم أرغب بمنع نفسي ...

وضعني صوتها في مواجهة إحدى الخلاصات الكارثية التي بدأت تتدفق علينا مع انتهاء الأزمة .

امرأة أخرى سمعت صوت بكائها قادم من أحد التجمعات.

كانت في الخمسين، وجهها الأصفر وحجابها الذي انزلق عن مقدمة شعرها يحكي معظم قصتها .

كانت مفجوعة بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، صوتها اختفى أثناء شهقات البكاء.

حاولت أن افهم منها ما حدث ، لكنها لم تستطع النطق ، كانت تحرك شفتيها بحركات إيمائية دون أن تتمكن من إخراج الكلمات ..

لم يكن هناك الكثير لتقوله .

المرأة لم تجد ابنها عندما بحثت عنه لما يزيد عن النصف ساعة بكل المساحات المغلقة المحدودة من المسجد ..

حاولت إقناعها بأنه موجود حتماً في الأنحاء ،
وأن الفوضى في هذه المواقف يمكن أن تحجب الناس عن بعضهم
حتى في أصغر المساحات ...

-اكيد بشي مكان هون.. طولي بالك خالة ، مشان الله طولي بالك

-طيب وينو ؟؟

أعتقد الآن أن ابنها كان مع الذين خرجوا واختفوا في الخارج ،
لا أدري لماذا قلت لها حينها ذلك الكلام..
ولا أدري ما أهمية أن أريحها لبضع دقائق دون أن أتمكن من
إجابتها عن سؤالها للأيام القادمة من غيابه..
(طيب وينو ؟)

أكملت مشيي العبثي محاولاً إعادة ترتيب المشاهد في وعيي
خرجتُ من التوسعة وسحبتُ نفساً عملاقاً ، و ملأت كل داخلي
بالهواء ..

كنت أمسح ببصري مظاهر الخراب المتفشي حتى في اصغر الزوايا
عندما وقعت عيني على كمية كبيرة من الدماء المتخثرة داخل المحراب

رفعت نظري لفوق لأرى خطوطاً طويلة من سائل دبق كثيف، نازلةً
على طول الأعمدة الكبيرة الداعمة التي تصل بين السقف والأرض ،
فهمت بعد قليل من التدقيق أنها آثار عصير من العبوات الزجاجية
التي تم قذفها من السدة على أعلى هذه الدعامات .
عند ارتطامها، كان الزجاج يتهشم ويتناثر بينما يلتصق العصير
بالدعامة ليسيل ببطء نحو الأسفل صانعاً هذه الآثار.

كم سيستغرق تنظيف المسجد..؟!
حتى بعد سنة، لن يستطيعوا الوصول لارتفاع هذه الآثار وتنظيفها!

من خلال السقف الذي يحدد مكان عزلتنا من الأعلى ويفصلنا عن الكون الخارجي، كان ضوء الشمس التي لم تشرق بعد، قد بدأ بدخول المكان ..
يتلون أثناء تسربه من البلور الفسيفسائي الموجود في أعلى القبة .. ويحاول جاهداً أن يخفف من رمادية المشهد.
طلع الضوء إذن !

برغم انتشار مادة الخوف والتصاقها بكل الزوايا ، استطاعت مكونات السماء أن تتسرب إلى الأرض المحطمة من جديد، وتلون معها نفوسنا المتفحمة بطريقةٍ تشبه المعجزة .

في المسجد الكبير المكسر الذي اختلط ضوء الشمس الذهبي فيه مع إضاءة النيونات المرهقة، لم يبقى سوى خروجنا تحت السماء .. أمام الناس المنتظرين.

AM 6:00

شابكنا أيدينا ، وشكلنا صفوفاً قصيرة غير متماسكة .
لم يختفي خطر اعتقالنا ، لازال حاضراً في الساحة ،
ومع ذلك ذهب معظم توترنا، حتى الخوف تلاشى بحضور التعب ، لم يعد من مجال كبير للتفكير ، سلمنا بما سيأتي، وخرجنا مهرولين من الباب الرئيسي ..

مررنا بسرعة إلى كتلة الأهالي المعتصمين وسط أصوات نباح قوي متواصل توحي بأن الكلاب المسعورة التي ملؤوا الساحة بها ستنفلت على البشر في أي لحظة .

(ابو حافظ ... ابو حافظ ... ابو حافظ ... ابو حافظ ... ابو حافظ ... ابو حافظ ... ابو حافظ... ابو حافظ... ابو حافظ)

كالكلب الذي لا يستطيع أن يصدر إلا صوت يتيم واحد هو النباح والذي يعبر به عن أي شيء يريد قوله ، كذلك كلاب الأسد ، ليس

بإمكانهم النطق ، إلا ب (ابو حافظ .. ابو حافظ) فقط دون كلمة أخرى جانبها، خالية من أي معنى، مناسبةً لكل المواقف والحالات ! للفرح، للانتصار، للهزيمة ، للتخويف ، للهجوم ، وحتى أثناء العودة إلى المنزل .

وطبعاً كترانيم عبادة وتنزيه لإلههم الحالي، ذي العنق الطويل !

(ابو حافظ ... ابو حافظ ... ابو حافظ ... ابو حافظ ... ابو حافظ ... ابو حافظ ... ابو حافظ... ابو حافظ... ابو حافظ)

لكني أكاد أجزم بأنها كانت تعبر في الصباح الباكر عن الجوع الذي استحوذ عليهم بعد الليلة الطويلة المتعبة.

(ابو حافظ ... ابو حافظ ... ابو حافظ ... ابو حافظ ... ابو ...

مستمرة دون كلل في خلفية المشهد ، تمثل كل موسقاه التصويرية ومؤثراته الصوتية!

في طريق العودة مررنا ثانيةً من الساحة بالميكرو .
أحزنني أن آخر ما وقعت عيني عليه في ذلك اليوم هو منظر السيارات العسكرية الهرمة التي تُحمّلهم عائدين إلى مقر أمن الدولة القريب ، ذلك المبنى الحقير المرعب الذي يقبع على صدر دمشق والذي يعرفه كل السورين.

من بين ما شاهدته لحظتها كان أولئك الذين يُحضِرونهم عادةً بأعداد محدودة للمهمات الخاصة.
رأيتهم في بعض المظاهرات .
لا أدري إن كان لديهم تسمية معينة يطلقونها على هذا الصنف ، لكن أطوالهم المتقزمة ، وبطونهم المنفوخة بطريقةٍ غير طبيعية ولحاهم الكثة القذرة و رؤوسهم الجرداء تجعل من أشكالهم النهائية أقرب ما تكون إلى مسوخ منها إلى أشكال بشر .
يقعون في منطقة الوسط بين الإنسان وبين كائنات بهيمية أخرى غير محددة ، وكأنهم لا يزالون في مرحلة متأخرة من سلسلة التطور .

ذكروني بمخلوقات العالم السفلي التي شاهدتها مرةً في فيلم " ملك الخواتم " !

أحدهم كان يحمل رشاشاً قصيراً جداً كقامته ، يلوح به أثناء صعوده لسيارة الجيب السوداء المرتفعة ، ويوزع زخماً من بذاءته على الناس قبل أن يذهب ..

بالنسبة لي، لطالما ارتبطت شمس الفجر التي لا أراها إلا نادراً، بفترة تملؤها النظافة والبياض..
تقاوم بشاعة مدينتنا التي تغفو كل مساء على أطنان الخطايا..

لكني لم أعد متأكد ماذا ستعني لي كل هذه الرموز بعد اليوم.
نحتاج أحياناً لسنوات طويلة لنفهم ما نحتته فينا تجربة صغيرة ..

◆ ◆ ◆

30 آب .. أول أيام العيد

(مسجد أبو أيوب الأنصاري)

كتب أحدهم مرة على الفيس بوك :

"لا ينام الشهداء ... يجولون شوارعنا ليلا يحرسون الحلم

يحملهم نسيم الليل ليقاتلوا وحوش الحديد ..

لا ينام الشهداء .. يسيرون في الصفوف الأولى لتلقي الرصاص عنا في كل مرة "

هوذا شهيد آخر يترك عالم الحياة، وينضم إلى حراس الأحلام،

يغادرنا نحن الموتى لنهنأ بحياتنا ..

-الفاتحة يا شباب ... الفاتحة

انسحبنا من كل أطراف المسجد إلى منطقة المنتصف ، حيث وُضع

النعش ، فهنا يقيم الآن الشهيد .

تحلقنا بصمت حوله ، نرى بأعيننا -دون أن نصدق -هالة

العظمة والقداسة التي يشعها الصندوق المغطى بأنحاء المكان .

إلى جوار الحزن الفجائعي الذي يملأ صدر الإنسان أمام موتاه، يفرض الشهداء علينا خشوعاً غريباً في حضرتهم.

حاولت ألا أقترب كثيراً لئلا أرى أهل الشهيد .
لم أقوى على مشاهدة اللحظة التي تجمع أب وأخوة بوداع أبديٍ لابنهم في أول أيام العيد، ابنهم الذي عاش معهم سنوات طويلة ليسقط بمسجد الرفاعي في ليلة السابع والعشرين من رمضان !!

أبعدني إحساسي بالدونية للوراء ، شعرت أني أتقزم أمام هذا الميت، وتتماهى هويتي الإنسانية مع هوية أي شيء آخر في المكان.

صرت أحرك بصري بعبثية في الجدران والأرض كي لا تقع عيني بعين أحد أخوته ..
بطريقة غير مفهومة يتحول الشهداء من أناس عاديين يعيشون بيننا،

يمكننا لمسهم والتكلم إليهم والشجار معهم، إلى أيقونات حية حقيقية نخشع أمامها ...

يُصغّرون ذواتنا أمام أسماءهم، وكأنهم بموتهم يصبحون أنبياء.

حضرني في هذه اللحظة ما قالته أحلام مستغانمي ، ولأول مرة أفهم ما تعنيه هذه الكلمات :

" مريكة صور الشهداء ، موجعة دائماً ، فجأةً يصبحون أكثر حزناً وأكثر غموضاً ..

فجأة .. يصبحون أجمل بلغزهم ، ونصبح أبشع منهم .

فجأة .. نخاف أن نطيل النظر إليهم .

فجأة .. نخاف من صورنا القادمة ونحن نتأملهم "

همَّ أحد الأشخاص برفع الغطاء عن وجهه لتوديعه ، فهكذا يفعلون عادةً ، لكن يبدو أن واحداً من أهل الشهيد لم يوافق ، من الواضح أنهم تعرضوا لتهديد ما من أجل لملمة التشييع.

عليهم لتجنب المشاكل التي قد تطال أبناءهم الآخرين، أن يبتلعوا

الوجع وينسوا أن ابنهم شهيد .. وأن يكتبوا أيضاً على نعوته أنه مات بحادثٍ أليم !

لا لم يمت بحادثٍ أليم .. محمد العلبي مات برصاصة مطاطية دخلت جبينَه لأنها أُطلقت من مسافة قريبة جداً ، بقي على أثرها في المشفى بغيبوبة حتى مساء البارحة.

سبّبَ رفضُ الأهل بلبلة صغيرة، رفع أحد الناس صوته الباكي فيها:

–يا جماعة هاد شهيد .... لك هاد شهيد من شو خايفين ؟

مع احترامنا لمصاب عائلته، محمد لم يعد ابن عائلة العلبي بعد الآن .. لم يعد شهيدهم وحدهم .

هو ابن الأهالي الذين يودعون كأهله كل يوم أولادَهم.

شهيد الناس الذين مات بين أيديهم، وشهيد كل من يشاركه إيمانه بما كان يفعل .

هكذا نظر معظمنا للقصة .

قبل بدء الصلاة نبّه الأمام بأنه يتوجب علينا الخروج بهدوء وصمت وألا نرفع أصواتنا .. كان معنى كلامه واضحاً، لا يخفى على أحد : علينا ألا نرفع أصواتنا كي لا يعرف العالم أن هذا الصندوق يحتوي بداخله على جثة شهيد نهشته كلاب الأسد قبل يومين .

عليه أن يموت بهدوء .. ويدفن بصمت .

علينا ألا نقول في تشييعه :

(بالروح بالدم نفديك يا شهيد ... و خاين يللي بيقتل شعبو)

وعلى الناس الذين تمر الجنازة في حاراتهم أن يعتقدوا أنه إنسان انتهى عمره ، ويترحموا عليه ثم يكملوا حياتهم المقيتة !

كغيره ، يريد تهدئة الناس عن التظاهر ..

بقي محمد مغطى، ووقفنا جميعاً بصلاة الجنازة .

لم نكد ننتهي، حتى تعالى صوتنا :

(الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..)

(الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر)

رفعت النساء في الطابق العلوي الستائر و أطلقن سيلاً من الزغاريد المحترقة، حتماً كانت أمه واحدةً منهن ..

فليذهب الإمام وكل اعتباراته إلى جهنم ، وحده الشهيد إمامنا

جُبنا به الشوارع العامة ، ومررنا بكثير من الحارات .
نرفعه على رؤوسنا وأصواتنا تحت شمس العصر، لعلنا نتمكن من قطع وعده علينا .
كنا في الحقيقة نُسمع أنفسنا قبل أن نُسمع ونُذكِّر الناس ..
ربما من لم يسمع أن الشيخ أسامة تعرض للضرب المبرح عند خروجه من المسجد من قبل الشبيحة تحت إشراف ذات العميد ، لن يرغب اليوم بسماع قصة هذا الشهيد الذي سقط مع عشرات الجرحى داخل مسجد الرفاعي في حصار ليلة السابع والعشرين ، حتى وإن مرت جنازته من تحت شباكه ..
كما لن يرغب أيضاً بسماع سبع قصص أخرى تخص سبع شهداء قتلوا بعيد صلاة العيد في أول أيامه !

هؤلاء هم عملياً من يَقتلون –بعقم عقولهم وإراداتهم – أخوتَهم في في الوطن .
هم من أفشلوا زلزال دمشق و منعوا الاعتصام الكبير المحتمل.
هم من أسقطوا عشرات القتلى من ضواحي الشام في صباح الزحف نحو الساحات الكبيرة، وهم من يُبعث الشهداءُ كل يومٍ

بالعشرات رسلاً لضمائرهم المتموتة...
من كان باستطاعته في العيد الماضي أن يتخيل أننا سنخرج اليوم
بثياب العيد لنودع بعضنا إلى المكان الأخير .. ؟!

معظم الشباب والفتيات حولي بمظاهرة التشييع كانوا بقمة أناقتهم،
وضعوا أفضل عطورهم، وارتدوا أجمل الثياب لهذه المناسبة..
وهل من مناسبة بحجم وداع الموت، في يوم العيد؟

إلى جواري كانت تسير فتاة جميلة، لن أنسى حضورها في حياتي،
أرجح أنها تنتمي لإحدى عائلات الطبقة الغنية التي كانت إلى حدٍ
كبير غير معنية بالثورة .

بلحظة من اللحظات رفعت نظارتها الشمسية الفارهة لأعلى رأسها
وتركت أشعة الشمس الحارقة تتدفق إلى داخل عينيها ..
أثناء سيرنا كانت تمسح الرجال المتفرجين علينا من الشرفات
بنظرات كلها احتقار.. وتقول بأعلى صوتٍ عندها :

(يا للعار يا للعار .. عالشب القاعد بالدار !!)

ثواني ، ولم نعد نسمع سوى صوتها الذي بسط نفسه على أصواتنا جميعاً ..

تنادي من الخلف ، ويرد وراءها الرجال ، كل الرجال ..

ويرن الصوت على أبواب المحلات المغلقة وإسفلت الشوارع

كم بدت دمشق يومها جميلة وبشعة في آن .

نظيفة وقذرة ..

غاب عنها ازدحامها ودخانها الأسود، واغتسلت في حفل الشهيد.

وبفائضٍ من الهدوء القاتل ، خلت كذلك من أناسها و بشرها ، من انسانيتها .

كانت مريضة مسمومة.. لا يعنيها كثيراً أن يموتَ أولادُها على مرآها ، وأن تُصمّ من صرخاتهم في مآتم بعضهم دون أن تنطق ..

بدا لي الظلام يومها أشدّ من أن تحتويه الشوارع
دخل البيوت.. و فاض على الدكاكين والمساجد والحدائق
ونحن لازلنا في الساعة الخامسة عصراً .

في غمرة العتمة أكملنا السير باتجاه إحدى الساحات الرئيسية ،
حيث تنتظرنا قصة خطر أخرى .

وحده القديسُ المحمول في عيوننا يعرف طريقه جيداً إلى البيت.
في نهار العيد الأسود، أطلق لنا خيطاً ذهبياً رفيعاً من الضوء لنسير
على حافته، ريثما يحل الليل ويزورنا من جديد في أثير الحلم،
حلمنا...

(تمــت)

2011- 9- 21